الإصلاح الأسرى فى ضوء القرآن الكريم والسنة والنبوية

علي محمد عبدالله الزهراني

كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية

جامعة القصيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من سار على دربهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان، وفضله على المخلوقات جميعاً، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأرسل له الرسل، وأنزل له الكتب، ولم يتركه في هذا الوجود بلا منهج يسير عليه، بل وضح له المنهج وأمره أن يسير عليه، مبيناً له أن الحياة الحقيقية هي باتباع ذلك المنهج، وأن الإعراض عنه سبب للشقاء والبلاء في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) (طه: ١٢٣–١٢٦) .

ومن هذا المنطلق أوجب الله على الناس أن يصلحوا الخلل والفساد الذي يطرأ على حياتهم بجميع مناحيها وصورها، فقد أصلح الله الدنيا بإصلاح الأرض التي يعيش عليها الإنسان، قال تعالى: (وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي ٱلأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا) (الأعراف: ٥٦)، فإذا حصل فساد من قبل البعض، وجب على الناس أن يتصدوا له، ويعيدوا ما فسد إلى أصله وهو الصلاح.

وإن أعظم مناحي الإصلاح في الارض هو إصلاح الاسرة حيث تعتبر الأسرة الوحدة الأساسية الأولى للبناء الاجتماعي، فهي منطلق النمو والخبرة والنجاح للفرد، ففي صلاحها إصلاح للمجتمع، فقد حث الإسلام على إنشائها والحفاظ عليها لتكون امتداد للحياة وصدق المولى عز وجل، حيث قال في كتابه الكريم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) النساء، الآية :١. فالأسرة تقوم بالدور الرئيسي في بناء صرح أي مجتمع من المجتمعات، بتدعيم وحدته وتماسكه وتنظيم سلوك أفراده، بما يتلاءم مع الأدوار الاجتماعية المختلفة لكل منهم (حقي وأبو سكينة ٢٠١٨م: ٩).

ورغم خصوصية العلاقة الزوجية وتقاربها الشديد إلا انه يختلف الزوجان في السلوك والمزاج والرؤية وغيرها من الصفات، ويتشابهان في الحاجات والدوافع والانفعالات، ونتيجة لاختلاف الثقافات والبيئة الأسرية التي أسهمت بتنشئة كل زوج، مع وجود قلة الخبرة في التعامل مع الحياة الزوجية، وعدم القدرة على استيعاب مشكلاتها الجديدة، فقد يواجه الزوجان عدد من الخلافات نتيجة بعض المواقف التي قد تكدر صفو العلاقة بينهما (الخالدي، ٢٠٠٩: ١٥).

وأقد أوضح علاء الدين (٢٠١٠) أن الخلافات الزوجية تحدث بين العديد من الأزواج خلال السنتين الأولى والثانية، حيث تنتهي (٢١%) من الزيجات خلالها، أما (٤٠%) من حالات الطلاق فتحدث بحلول السنـة الرابعـة من الزواج (علاء الدين ٢٠١٠: ١٢).

فنسبة الطلاق مقابل حالات الزواج في آخر إحصائية لوزارة العدل بالمملكة العربية السعودية لعام ١٤٣٨هـ كانت ٣٤% صك طلاق مقابل ٦٦% عقد نكاح، بمجموع كلي ١٢٤.١٢٨ عقد زواج، مقابل ٣٩.٥٦٥ صك طلاق، حيث كان نصيب منطقة الرياض ٢٦.٥٦٣ عقد زواج مقابل ١٠.٤٢٢ صك طلاق بمعدل ٣٩%، ومنطقة مكة المكرمة ٣٠.١٣٢ عقد زواج مقابل ١٠.٧٤٥ صك طلاق بمعدل ٣٥% لنفس الفترة (وزارة العدل السعودية ٢٠١٧).

فأن عدم استقرار الحياة الأسرية يكون له الأثر السلبي على المجتمع كله، فاليوم يعيش الناس في فلك التغيرات السريعة والمؤثرات التي ظهرت بصماتها على دين وأخلاق الأسرة فزادت نسبة الخلافات العائلية، كما زادت حالات الطلاق، فنتج عن ذلك تفكك الأسرة وانحراف الأولاد، وظهور أنماط من السلوك المنحرف كالعقوق وتشريد الأبناء لوالديهم أو الهجر، ولا يخفى على الجميع أن ظهور الخلافات بين الزوجين وفي الأسرة الواحدة أمر طبيعي ولكن الأمر غير الحميد أن تتفاقم المشكلات، ويطول مداها، وتتسع دائرتها من غير تدخل مصلح لحل الخلاف ومن غير أن يجد صاحب المشكلة حل لمشكلته، الأمر الذي يؤثر على حياته وحياته المحيطين به.

مشكلة الدارسة:

تظل العلاقة بين الزوجين أقدس وأطهر العلاقات البشرية، فديمومة هذه العلاقة واستمرارها في جو من الحب والعطف والتفاهم والانسجام ينجم عنها جيل مستقر ومتزن من الناحية النفسية والاجتماعية، فتأثير هذا الجو الصحي يستمر مع الأبناء حتى عندما يكبرون ويستقلون بحياتهم عن أبويهما ويبدأون في تكوين أسرهم الخاصة، فمع استمرار الخلافات الزوجية بين الزوجين قد يمتد الأمر إلى جيل الأبناء (كفافي، ١٩٩٩: ٤٦).

فالشاب يظل مترددًا قبل الدخول في تجربة الزواج، فيدخل في معترك الحياة في سبيل لقمة العيش، حتى إذا قرر الزواج اختزل هدف الزواج في عبارات مجهولة المعنى لديه مثل "الاستقرار" و"صفحة جديدة " بدون غاية محددة وواضحة يبني عليها اختياره لشريك حياته القادمة، ويفاجأ الشاب بمسؤوليات جديدة على كاهله عند بدايات حياته الزوجية، وتزداد تلك المسؤوليات يومًا بعد يوم، وقد يجد أنه قد أساء الاختيار، أو هناك عدم توافق عقلي أو روحي بينه وبين زوجه، فيدفن همومه خارج المنزل متجاهلًا واجباته نحو زوجته وبيته، وقد يرزق بأولاد خلال سنواته الأولى، فتلهيه فرحة الأولاد عن رسم خطوات تربوية لتهذيب أخلاق نشئه، فيتركهم لمستنقع الشارع، ومحرقة الإعلام والوسائل الإلكترونية الحديثة مثل التلفاز والإنترنت وغيرها، فينشأ الأولاد مشوهي الأخلاق بعيدين عن فهم واجباتهم الدينية ومسئولياتهم نحو والديهم، وقد تكلل تلك التجربة الزوجية بعد فترة - قصرت أو طالت - بالانفصال وطلب الطلاق من أحد الطرفين أو كليهما، فيخسر الزوج ماء وجهه وراحة باله في سبيل أداء حقوق مطلقته، وإنهاء المشاكل مع أهلها، وتخسر الزوجة بيتها، ويخسر الأولاد اجتماع الوالدين، والأمل في حياة طبيعية مستقرة، وتتأثر دراستهم، ويتغير النظام العام لحياتهم بالكامل، وقد يضيع ما تبقى من أمل في حياتهم المستقبلية، وكل ذلك راجع لجهل قسم كبير من الأزواج في وقتنا الحاضر بما لهم وما عليهم من حقوق وواجبات في الحياة الأسرية، فيما يضطر الزواج أو الزوجة للبحث عن حلول للخروج من مأزق الصدع الأسري وتفكك العلاقات من خلال العيادات النفسية أو المرشدين الأسريين، فمع كثرت نظريات العلاج الاسري في هذه الآونة، ولكن أيا منها لم يحالفه الحظ في إسعاد الزوجين بالطريقة التي يأملونها، فكانت هذه المبادئ المجربة على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان - هي البلسم الوحيد لإصلاح ما أصاب هذه الأسرة من أمراض مزمنة، خاصة وأن هذه النظرية بل

الحقيقة المجربة - (الدستور الأسري) مستمد من النبع الصافي - القرآن العظيم والذي كان من أولى اهتماماته إصلاح النفس البشرية، ثم إصلاح الأسرة، وإصلاح المجتمع بشكل عام، لذا احتاج هذا الموضوع إلى مزيد من الجهد لإبراز دور القرآن العظيم والسنة النبوية في علاج المشكلات الاسرية وإصلاح الصدع بين الزوجين لتنعم الاسرة بحياة مستقرة تُسهم في بناء مجتمع قوي ومتماسك.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة الحالية إلى:

١. الوقوف على أهم القواعد والأصول والأسس التي توصلنا إلى الإصلاح الأسري من خلال القران والسنة.
٢. إبراز دور القرآن والسنة في علاج القضايا المعاصرة والمستجدة في محيط الاسرة، وإيجاد الحلول المناسبة لها.
٣. تحقيق حاجة الأمة الإسلامية إلى الإصلاح الاسري وخاصة في هذا العصر، الذي يمارس فيه الإعلام دورة السلبي.
٤. بيان الوسائل التي يجب إتباعها للوصول إلى الإصلاح الاسري.
٥. بيان اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بالإصلاح بشكل عام، وبالإصلاح الاسري بشكل خاص.

أهمية الدراسة: وتحدد في التالي:

أولاً: الأهمية النظرية:

١. تعد الدراسة الحالية محاولة تضاف إلى التراث الاجتماعي والنفسي كون القران والسنة منهجا لها في علاج بعض المشكلات الاسرية.
٢. تزويد بالمكتبة العربية بمثل هذه الدراسات التأصيلية التي تربط القران والسنة بالواقع بشكل مباشر دون تنظير كما في النظريات النفسية والاجتماعية.

ثانيا: الأهمية التطبيقية:

١. محاولة الإفادة مما ستفسر عنه نتائج هذه الدراسة في تصميم برامج إرشادية للاستفادة منها في مواجهة المشكلات الأسرية وكيفية التعامل معها.
٢. بناءً على ما ستفسر عنه هذه الدراسة يقدم الباحث توصيات علمية قد تفيد الباحثين في كونها نقطة انطلاق لدراسات جديدة تتعلق بمتغيرات الدراسة.

مصطلحات الدراسة:

<u>الإصلاح:</u>

١. وعرف في (لسان العرب) بانه: "استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل".
٢. وعُرف في (المعجم الوسيط) بأنه: "تصويب ما أعوج في ممارسة أمور الدين والدنيا عند المسلمين، والعودة بها إلى الأصل الذي لم يلحقه زوائد ومحدثات".
٣. وعُرفه (ياسين ٢٠٠٦) بأن" تقويم وتصحيح الأخطاء أو الفساد الذي اعترى الفرد أو الجماعة في وقت من الأوقات للوصول إلى الحالة المستقيمة والسوية ".

<u>الأسرة:</u>

١. تُعرَفُ الأسرةُ بأنَّها الرِّباطُ الشَّرعي والاجتماعي الذي يَجمَعُ رجلاً بامرأةٍ بعلاقةٍ غريزيَّةٍ شرعيّة تَضمنُ للطَّرفينَ حقوقهما والتزام كلِّ طَرفٍ بواجباتِه، ثمَّ تتَّسِعُ لتشمَلَ ذريَّة الطَّرفينِ وأقارب كلٍّ منهما؛ فهيَ مؤسَّسةٌ اجتماعيَّةٌ قائمةٌ على مبدأ الشَّراكةِ بين جنسينِ لتُوفِّرَ لكلٍّ منهما حاجاتِه البيولوجيَّةِ والغريزيَّةِ ضِمن حدودِ الدِّينِ والقانون.
٢. وعرفها شقير (٢٠٠٢) بأنها: "الرابطة الاجتماعية التي تتكون من زوجين وأطفالهما وتشمل الجدين وبعض الأقارب".

منهجية الدراسة:

١. جمع الآيات التي تناولت الموضوع، وتبويبها حسب الموضوعات.
٢. تحليل النصوص القرآنية في ضوء السياقات الواردة فيها، وربطها بموضوع الإصلاح الأسري، وبيان العلاقة بينهما بما يتناسب مع التفسير الموضوعي.
٣. التركيز على كتب التفسير، والأحاديث وبعض الآثار التي وردت في المسائل التي تناولتها في البحث.
٤. عند استعراض آية، أو آيات من كتاب الله تعالى أورد معناها الإجمالي، وأذكر بعض اللطائف اللغوية والتفسيرية -غالبا- المتعلقة بالإصلاح الأسري، وأحيانا أذكر القراءات الواردة في الآيات، وأحيانا أذكر بعض الدروس والعبر المستفادة من تلك الآيات، وأحيانا أستدل الآية الواحدة في أكثر من موضع، وأبين معناها الإجمالي مرة أخرى إذا ما اقتضت الضرورة.

الدراسات السابقة:

لم تخل الكتب القديمة - خاصة كتب التفسير - من موضوع الإصلاح، وذلك لكثره ورود مصطلح الإصلاح في كتاب الله، ولكن لم يفرد بالدراسة موضوع "الإصلاح الأسري بشكل تفصيلي كتفسير موضوعي، ولم تخل منه كتب الفقه في بعض الفصول فيها وخاصة الإصلاح بين الزوجين، وبحسب اطلاع الباحث على المؤلفات الحديثة، فلم يجد كتابا يتحدث عن هذا الموضوع بشكل شمولي كدراسة في التفسير الموضوعي- وقد ورد مثل هذا الموضوع مفرقا في بعض الدراسات التالية والتي استفاد منها الباحث في البحث الحالي:

- دراسة الشلسي، ياسر مسمعي (٢٠١٠م) أحكام التأهيل والإصلاح الأسري، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية. عمّان.
- دراسة قاسم، رياض محمود وأبو عمرة فايز حسان (٢٠٠٨) دراسة قرآنية حول دعوة القرآن إلى إصلاح الأسرة والمجتمع، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية) المجلد السادس عشر، العدد الأول، ص٢٤٥ -ص٢٩١.
- دراسة ياسين، إسعاد يونس صادق (٢٠٠٦) الإصلاح الأسري من منظور قراني، رسالة ماجستير، نابلس.

الإطار النظرية:

المبحث الأول: ملامح الإصلاح وأنواعه كما وردت في القرآن:

الإصلاح والصلاح على اختلاف اشتقاقاتهما مادة غزيرة يزخر بها كتاب الله عز وجل، وهي تحمل في طياتها ألوانا متعددة وملامح وسبلا متنوعة، في إشارة إلى أهمية الإصلاح ودوره في التغلب على المشكلات ومعالجة طرق الفساد سواء على صعيد الفرد أو على صعيد الأسرة أو المجتمع، سواء في جانب الاقتصاد أو السياسة أو التعليم.

فلفظة الإصلاح في كتاب الله كلمة أصيلة لها قواعدها المتينة وأسسها الثابتة وطرقها الرصينة، مرسومة بشكل دقيق لا لبس فيه ولا غموض ولا اعوجاج.

وبما أن الإصلاح هو السبيل للرقي بالمجتمع، وهو العلاج الشافي لكل الأمراض التي تعصف به؛ فلابد من ركائز ووسائل يستند عليها، كما أن طرقه ليست شيئا مبهما، وبما أنه يشمل كافة مناحي الحياة فقد تعددت أنواعه، وإذا ما سار الإنسان في طرق الإصلاح فان هناك ثمارا تنتظره.

ركائز الإصلاح:

الركيزة الأولى: التمسك بكتاب الله تعالى.

الركيزة الثانية: إقامة الصلاة.

قال تعالى: {والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين} (١٧٠: الأعراف) إن هاتين الركيزتين تمثلان عنوانا لصلاح البشرية، فتحكيم كتاب الله في حياة الناس التمسك به، وإقامة الشعائر التعبدية وفي مقدمتها الصلاة، انهما "الطرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح بسواه".

أنواع الإصلاح:

النوع الأول: إصلاح البيت والأسرة:

قال تعالى: {وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليم خبير). (٣٥: النساء)، وقال تعالى: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ } (١٢٨: النساء)، وقال تعالى: { وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا). (١٢٩: النساء).

النوع الثاني: الإصلاح بين المتخاصمين:

قال تعالى: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} (٩: الحجرات)، وقال تعالى: (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون}. (١٠: الحجرات)، وقال تعالى: {اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين} (١: الأنفال)، وقال تعالى: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) (١١٤: النساء).

النوع الثالث: الإصلاح الأخلاقي:

قال تعالى: {ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العلمين} (٢٨: العنكبوت)، وقال تعالى: {قال رب انصرني على القوم المفسدين) (٣٠: العنكبوت)، فقوم لوط وصلوا إلى درجة الانحطاط الأخلاقي لم تصل إليه البشرية من قبل، فعمل لوط على إصلاح هذا الفساد الأخلاقي بكل الوسائل، لكن قلوب القوم قد عميت فلم ينفعها التذكير.

ثمار الإصلاح:

١. على نطاق الشخصية:

الحصول على الأجر العظيم، قال تعالى: {لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضت الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما} (١١٤: النساء).

٢. على نطاق الأسرة والعائلة:

التوفيق من الله، قال تعالى: {.. إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما..} (٣٥: النساء).

٣. على نطاق المجتمع والأمة:

حلول البركات على الأرض، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ..} (٩٦: الأعراف)، وقال تعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا [الجن:١٦].

المبحث الثاني أهداف الأسرة:

أولاً: الألفة والسكينة:

الأنس النفسي المؤدي إلى الألفة والسكن والتعاون على الشدائد، وهذا هو الهدف الأول لتكوين الأسرة كما أخبر جل وعلى في كتابه الكريم في سورة الأعراف {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها} (١٨٩: الأعراف)، وهذه هي نظرة الإسلام الحقيقة الإنسان ووظيفة الزوجية في تكوينه، إنه السكن والاطمئنان والاستقرار ليظل السكون والأمن هو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الناشئة، فلم يجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة، كما أنه لم يجعله شقاقا ومنازعات.

ثانياً: إشباع الغريزة الفطرية:

وهذه الغريزة وصفت بأنها فطرية لأنها مفطورة ومرتبطة مع النفس الإنسانية لا تنفك عنها، وجعل الله تعالى حاجة الرجل إلى المرأة كحاجة المرأة إلى الرجل، وشبه هذه الحاجة باللباس فصارا بالتقائهما تحت ثوب واحد بمثابة الجسد الواحد، والذي دفعهما لهذا اللباس إنما هو إرضاء غريزة كل منهما، فجاء التعبير الدقيق وصفا لهذه الغريزة الفطرية (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن} (١٨٧: البقرة)."ولما كان الرجل والمرأة يتعانقان، ويشتمل كل منهما على صاحبه شبه كل واحد بالنظر إلى صاحبه باللباس، أو لأن كل واحد منهما يستر صاحبه ويمنعه الفجور .

ثالث: المودة والرحمة:

وهذا الهدف هو منة ومكرمة من رب العالمين، يغرسها في قلوب الزوجين اللذين يكونان أسرة جديدة من غير سابق معرفة بينهما، أو معاملة تعرف أحدهما بالآخر، وهي في الوقت ذاته عبرة لأولي الألباب، قال تعالى:{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(٢١ : الروم) والمودة : "محبة الشيء وتمني كونه، والمراد: ما أوقع بينهم من الألفة والمحبة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، ويأتي بمعنى التعطف، والمعنى: ومن آياته أن خلق لكم وجعل بينكم بالزواج الذي شرعه لكم توادا وترحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة صحيحة للتعاطف من قرابة أو رحم، وقيل: "بأن المودة والرحمة من الله، والفرك - وهو بغض أحد الزوجين للأخر من الشيطان.

المبحث الثالث: التشاور داخل الأسرة:

الشورى لها دور كبير في نجاح القادة والمؤسسات، والأفراد العاديين، كما أن فيها اجتماع الكلمة والّتحابّ بين الرئيس والمرؤوس، وبين الشريك وشريكه، فكيف بالشورى وهي تتجلى بمعانيها الندية في الحياة الزوجية، هذا الدور الكبير الذي تثمره الشورى في الحياة الزوجية تحدثت عنه بعض آيات كتاب الله عز وجل، قال تعالى: {فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا} (٢٣٣ :البقرة)

الشورى عامل مهم في نجاح الأسرة:

في الآية السابقة إشارة إلى الزوجين إلى جعل المشاورة والمشورة منهجا في حياتهما وخاصة في الأمور المشتركة بينهما – وما أكثرها- ولأنه "ما ندم من استشار وما خاب من استخار"، و"الإنسان مدني بالطبع" لا يستغني عن غيره، وهذا مع الناس الأجانب فكيف لو كان هذا الغير هو زوجه؟ وكان معه ليل نهار؟ فهل يعقل أن تقوم الأسرة على أساس الحكم الجبري؟ وأن يكون أحدهما آمرا والآخر مأمورا، وقد يوجد مثل هذه الحالات ولكنها في حكم النادر والشاذ، ومثل هذه الأسر ستعيش حالة من التوتر وعدم الاستقرار، وربما يستمر مثل هذا الوضع معها إلى آخر عمرها؛ ربما بسبب خوف المرأة من هذا الزوج الجواظ الغليظ، أو بسبب وجود امرأة تربّت على تعاليم الإسلام وارتوت من معين الهدي النبوي في الامتثال طاعة لزوجها، وقد يكون العكس أن تكون الزوجة هي الآمر الناهي في هذه الأسرة.

غض البصر علاج أوّلي لضبط شهوة الفرج:

قال تعالى: { قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا (٣١: النور) (إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا ُتهاجُ فيه الشهوات في كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي...فالنظرة الخائنة، والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسم العاري، كلها لا تصنع شيئا إلا أن ُتهيِّج ذلك السعار الحيواني المجنون فإمّا الإفضاء

الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد، وإمّا الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة، وهي تكاد تكون عملية تعذيب، والطريق المأمون: هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل في حدوده الطبيعية، لذا فلا غرابة أن نجد في تشريعنا العظيم ما يقلل احتكاك الجنسين مع بعضهما البعض في كل مكان، حتى في المساجد وهي أشرف البقاع إلى الله، فقد عمل الإسلام على ترتيب أمر صفوف الصلاة للرجال والنساء، ورتَّب أمْرَ الدخول والخروج منها، بما يضمن التقليل من وقوع لو تركنا هذا البصر بين الطرفين، فعن نافع عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله، الباب للنساء قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات.

وبعد كل هذه الاحتياطات للتقليل من طرق الاستثارة، جاء الأمر بغضّ البصر – فلربَّما. تعذر عدم الاختلاط- لتقليص وإزالة فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين وحِفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية للتحكم بالإرادة ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى "وبدأ بالغضّ قبل الفرج لأن البصر رائد للقلب" كما ذكرنا بهذا المعنى عن بعض العلماء "وهو الباب الأكبر إلى القلب.

التعفف سمة المؤمن الذي لم يستطع الباءة:

قال تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ} (٣٣ : النور) بعد أن وجه الله تعالى الآمر للمؤمنين بتزويج غير المتزوجين، طالب الذين لم يجدوا مؤونة النكاح - باعتبارها العقبة الكأداء التي تحول دون النكاح- بالاستعفاف حتى يجدوا ما يا معشر الشباب يعينهم على النكاح، وقد بيَّنت السنة النبوية كيفية الاستعفاف فقال رسول الله من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء" وفي الآية إشارةٌ إلى الكرم الإلهي لهذه الثلَّة التي أبت إلا أن تسلك سبيل الحلال، فلم تسَتهْوها سبل الشيطان، فهي "عِدَةٌ كريمة بالتفضّل عليهم بالغنى، ولطف بهم في استعفافهم وربط على قلوبهم، وإيذان بأنّ فضله تعالى أولى بالأَعّفاء وأدنى من الصُّلحاء، وفي صورة أوضح مؤكدا تكرّم الله على الأعّفاء بإغنائهم من فضله وبيان أظهر يُلقي على مسامعنا رسول الله وإعانته لهم - بقوله: "ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عزّ وجل عوُنهم المجاهدُ في سبيل الله، والناكح الذي يريد العفاف، والمكاتب الذي يريد الأداء".

آداب استئذان الأجنبي والغريب:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧: النور).

البيت هو السكن الطبيعي الذي تأوي إليه الأسرة، ويضم أنواعا متعددة من أسرارها التي لا تحب أن يطلع عليها أحد، فجاء هذا النداء الرَّقْراق مخاطبا المؤمنين بأن يراعوا مثل هذه المشاعر الإنسانية، ولا يَلِجوا بيت أحد حتى يستأنسوا ويبعدوا الوحشة في دخولهم لهذا البيت وذاك، ثم ليشعرا أهل البيت بالأمان وذلك بتسليمهم عليهم، وثمة أثر ايجابي آخر يعود بالفائدة على المستأذن وهو عدم انكشاف عورات البيوت أمامه إذا دخلها دون استئذان، وهذا كله خير مما كانت تفعله الجاهلية.

وقد يخلو البيت من أهله، فهل يُدخل على هذا البيت بدون إذن أم ماذا؟ هنا يأتي القرار الرباني بعدم دخول مثل هذا البيت؛ لأن ذلك أبعد عن الشبهة، وأبعد عن وسوسة الشيطان، وقد يُتصوّر أن الرجوع عن دخول هذا البيت – فقط - إذا لم يكن أهله فيه، فجاءت الآية لتزيل مثل هذا اللبس، ولتحسم الموقف بالرجوع عن هذا البيت بعد الاستئذان، سواء وجد فيه أهله – ولم يردوا عليه بإذن أو غيره- أو لم يجد، وفي حالة وجد أهله فيه، فلم يأذنوا له – لسبب أو بدون سبب- فما عليه سوى الرجوع، فذلك أطهر لنفسه من اللجوج والوقوف والعناد، والله تعالى عليم بخلجات نفوسكم، خبير بمن يُطبِّق أوامر الله ومن يعرض عنه.

إظهار الزينة للزوج، وجواز ظهورها لغيره من ذوي المحارم:

قال تعالى: (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)) (٣١ :النور)

ثالثا: إظهار الزينة للزوج أسلوب وقائي وتربوي للحفاظ على تماسك الأسرة:

إن الزينة التي فطرت عليها المرأة لم يحاربها الإسلام، ولم يستأصل شأفتها بل عمل على ضبطها، إذ إنّ بقاءها على ما كانت عليه في الجاهلية سيعمل على إثارة غرائز الرجال، وبالتالي كسر الحواجز النفسية التي تحول دون الهبوط إلى المستوى الحيواني.

وقد لا يذكر الأثر الذي تتركه زينة النساء على إثارة الشهوات مقارنة مع الأثر الذي تتركه بعض الحركات والأصوات الجذابة التي تعمل على جذب غرائز الرجل بشكل أكبر، "فالخيال في بعض الأحيان ليكون أقوى في إثارة الشهوات من العيان وسماع وسوسة الحلي أو شمام شذى العطر من بعيد، قد يثير حواس رجال كثيرين، ويهيج أعصابهم، ويفتنهم فتنة جارفة لا يملكون لها ردّا.

تقوى الله في المعاشرة الزوجية:

وقال تعالى:{ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}(٢٢٣ :البقرة)

جاءت هذه الآية الكريمة بعد الإجابة على تساؤل عن إتيان النساء في المحيض، فأتت هذه الآية لتزيل ما قد علق في بعض الأذهان بحرمة إتيان النساء في قبلهنّ من أدبارهنّ، وفي غمرة الحديث عن العشرة الزوجية يهتف الحق جل وعلا بالقلوب المؤمنة بأن تقدم لنفسها – حتى في أثناء المعاشرة الزوجية- العمل الصالِح، وليختلط هذا العمل بتقوى الله تعالى ومخافته، لتنتج الذرية الصالحة والأسرة المستقيمة، وكأن المعنى: "فلا تكونوا في قيد قضاء الشهوة، بل كونوا في قيد تقديم الطاعة"، وفي نهاية المطاف ستذهب هذه الملذات وتلك الشهوات التي يُتمتع بها في الحياة الدنيا، وسيكون لقاء كل نفس بربها فردا، فمن وضع تقوى الله نصب عينيه فله البشرى وحسن مآب.

غض بالبصر:

لا شك أن للتربية دورًا كبيرًا ومهمًا في المحافظة على عفة الأسرة وصيانة عرضها ووقايتها من الوقوع في حمأة الرذائل، ومن هذا المنطلق وضع القرآن الكريم أسسا لمثل هذه التربية، فأمر بغضِّ البصر، كما أنه قطع الطريق أمام إثارة الشهوات من خلال تحريم تبرج النساء، وقصر تزينهن لأزواجهن، وإذا ما انحدرتْ نفسٌ إلى مستنقع الفواحش كانت العقوبة الإلهية العادلة في انتظاره، ومن يرد أن يتزود في هذا الباب فما عليه إلا أن يتزود بخير زاد ألا وهو تقوى الله عز وجل.

غض البصر علاج أوّلي لضبط شهوة الفرج:

قال تعالى:{ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ٣١ :النور).

أشارت الآية الكريمة إلى أن الإسلام يتميز بأنه دين متكامل يهتم بجميع نواحي الحياة وتفاصيلها، فأخبر المؤمنين بأن يغضُّوا من أبصارهم نحو المحرمات، فالله تعالى يأمر نبيه كره الله تعالى لهم النظر إليها، وأن يحفظوا فروجهم من الزنا، وأن يستروا عوراتهم عن الناس الذين لا يحل لهم أن ينظروا إليها فإنّ هذا أطهر لهم، ثم يحذر الله عباده بأنه لا تخفى عليه خافية، فهو خبير بخلجات النفس وخيانة الأعين، إذًا فلتكن هذه الجوارح مستشعرًة رقابة الله تعالى عليها.

ولإيلاء موضوع غض البصر الأهمية الكبرى، لم يقتصر الخطاب على أمر المؤمنين بغض البصر، فقد يُظنّ بأن المؤمنات لا يشملهنّ هذا الأمر، فجاءت الآية الأخرى لتجلي الموقف وتقطع الشك باليقين، فتُؤمر المؤمنات أيضا بغض أبصارهن وحفظ فروجهن.

إنّه نظام التشريع الرائع الذي يزيل كل العقبات التي تجذب الشهوات المحَرَّمة، كما أنّه حين يفرض العقوبات لا يفرضها إلا بعد إبعاد النفس الإنسانية عن الولوج والتفكر في طريق المحرمات

النظرة سهم قاتل للإيمان:

إنّ من أكثر ما يهيج الشهوات، ويقود إلى الفاحشة النظرة التي تمتزج بشهوة النفس، لذا يحذرنا رسول الله بقوله في الحديث القدسي: "إِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهَا من مَخَافَتِي أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ" رواه الحاكم، والطبراني. ففي ذلك ترغيب للمسلم بأنه إذا ترك مثل هذه النظرة مخافة من الله فسيجزيه أجرا عظيما إنه تذوّق حلاوة الإيمان فلو لم يكن من جزاء إلا هذا لكفى به فخرا وشرفا ونعمة.

فإن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تُهاجُ فيه الشهوات في كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهي إلى سعار شهواني لا ينطفئ ولا يرتوي، فالنظرة الخائنة، والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسم العاري كلها لا تصنع شيئا إلا أن تُهيِّج ذلك السعار الحيواني المجنون، فإمّا الإفضاء الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد، وإمّا الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة، وهي تكاد تكون عملية تعذيب. والطريق المأمون: هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل في حدوده الطبيعية، لذا فلا غرابة أن نجد في تشريعنا العظيم ما يقلل احتكاك الجنسين مع بعضهما البعض في كل مكان. حتى في المساجد وهي أشرف البقاع إلى الله، فقد عمل الإسلام على ترتيب أمر صفوف الصلاة للرجال والنساء، ورتَّب أمْرَ الدخول والخروج منها، بما يضمن التقليل من وقوع البصر بين الطرفين، فجاء الأمر بغضّ البصر – فلربَّما تعذر عدم الاختلاط- لتقليص وإزالة فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبي.

التعفف سمة المؤمن الذي لم يستطع الباءة:

قال تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ} (٣٣ : النور) بعد أن وجه الله تعالى الآمر للمؤمنين بتزويج غير المتزوجين، طالب الذين لم يجدوا مؤونة النكاح - باعتبارها العقبة الكأداء التي تحول دون النكاح- بالاستعفاف حتى يجدوا ما يعينهم على النكاح وقد بيَّنت السنة النبوية كيفية الاستعفاف فقال رَسُولُ اللَّهِ : يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ

فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفي الآية إشارةٌ إلى الكرم الإلهي لهذه الثلّة التي أبت إلا أن تسلك سبيل الحلال، فلم تستَهْوها سبل الشيطان، فهي "عِدَةٌ كريمة بالتفضّل عليهم بالغنى، ولطف بهم في استعفافهم وربط على قلوبهم، وإيذان بأنّ فضله تعالى أولى بالأَعّفاء وأدنى من الصُّلحاء"، وفي صورة أوضح مؤكدا تكرّم الله على الأعّفاء بإغنائهم من فضله وبيان أظهر يُلقي على مسامعنا رسول الله وإعانته لهم - بقوله: "ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عزّ وجل عوُنهم المجاهدُ في سبيل الله، والناكح الذي يريد العفاف، والمكاتب الذي يريد الأداء".

القيمة العالية للاستئذان في التأثير على صلاح الأسرة:

المجتمع المسلم يتميز عن غيره بعدة خصائص منها أدب الاستئذان، الذي له مزايا عديدة منها عدم كشف عورات الناس، والاطمئنان الذي يسود الأسرة في حالة الاستئذان عليها من الأجانب، أو حتى استئذان بعض أفراد الأسرة بعضهم على بعض، وسأتكلم في هذا المبحث عن بعض الآداب التي تخص القريب والآداب التي تخص الغريب.

آداب استئذان الأجنبي والغريب:

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)

المعنى الإجمالي للآية:

البيت هو السكن الطبيعي الذي تأوي إليه الأسرة، ويضم أنواعا متعددة من أسرارها التي لا تحب أن يطلع عليها أحد، فجاء هذا النداء الرَّقْراق مخاطبا المؤمنين بأن يراعوا مثل هذه المشاعر الإنسانية، ولا يَلِجوا بيت أحد حتى يستأنسوا ويبعدوا الوحشة في دخولهم لهذا البيت وذاك، ثم ليشعروا أهل البيت بالأمان وذلك بتسليمهم عليهم، وثمة أثر ايجابي آخر يعود بالفائدة على

المستأذن وهو عدم انكشاف عورات البيوت أمامه إذا دخلها دون استئذان، وهذا كله خير مما كانت تفعله الجاهلية.

وقد يخلو البيت من أهله، فهل يُدخل على هذا البيت بدون إذن أم ماذا؟ هنا يأتي القرار الرباني بعدم دخول مثل هذا البيت؛ لأن ذلك أبعد عن الشبهة، وأبعد عن وسوسة الشيطان، وقد يُتصوّر أن الرجوع عن دخول هذا البيت –فقط- إذا لم يكن أهله فيه، فجاءت الآية لتزيل مثل هذا اللبس، ولتحسم الموقف بالرجوع عن هذا البيت بعد الاستئذان، سواء وجد فيه أهله – ولم يردوا عليه بإذن أو غيره- أو لم يجد، وفي حالة وجد أهله فيه، فلم يأذنوا له – لسبب أو بدون سبب- فما عليه سوى الرجوع، فذلك أطهر لنفسه من اللجوج والوقوف والعناد، والله تعالى عليم بخلجات نفوسكم، خبير بمن يُطبِّق أوامر الله ومن يعرض عنها.

هل الاستئذان قبل التسليم أم بعده؟

قال النووي - رحمه الله- مبينا آراء العلماء في هذه المسألة: "الصحيح الذي جاءت به السنة وقاله المحققون: أنه يُقدَّم السلام فيقول: السلام عليكم أأدخل، والرأي الثاني: يقدم الاستئذان، والرأي الثالث -وهو اختيار الماوردي من أصحابنا- إن وقعت عين المستأذن على حديثان في تقديم صاحب المنزل قبل دخوله قدم السلام، وإلا قدّم الاستئذان، وصحّ عن النبي السلام أما إذا أستأذن ثلاثا فلم يؤذن له، وظنّ أنه لم يسمعه؛ ففيه ثلاثة مذاهب: أشهرها أنه ينصرف ولا يعيد الاستئذان، والثاني يزيد فيه، والثالث إن كان بلفظ الاستئذان المتقدم لم يعده، في هذا الحديث: "فلم يُؤذن له َفلْيَرجع"، وإن كان بغيره أعادة، فمن قال بالأظهر: فحجته قوله ومن قال بالثاني: حمل الحديث على من علم، أو ظن أنه سمعه فلم يأذن والله أعلم.

إظهار الزينة للزوج، وجواز ظهورها لغيره من ذوي المحارم:

قال تعالى:{ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ

النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) }(٣١ :النور)

المعنى الإجمالي للآية:

هذا المقطع من الآية الكريمة هو مكمل للآداب السابقة -التي تقطع أوصال سبل الشيطان- للوصول إلى الأسرة السليمة والمجتمع الصالح الطاهر، فتأتي هذه الآية لتضيف شيئا آخر، فبالإضافة إلى غض البصر من المرأة وحفظ فرجها، يأتي الأمر بعدم تزيّن المرأة لغير زوجها، وإن ظهرت منها الزينة فلأناس معدودين؛ كآبائهن وإن علوا، وآباء أزواجهن، أو أبنائهن وإن سفلوا، أو أبناء أزواجهن، أو إخوانهن، أو بني إخوانهن وإن نزلوا، أو بني أخواتهن وإن نزلوا، أو النساء المحيطات واللاتي يخالطنهن، أو ما ملكت أيمانهن من الإماء، وكذلك عبيدهن من الذكور -في بعض الآراء-، أو الرجال الذين يُئِس من بقاء شهوة النساء في نفوسهم، وكذلك الأطفال الذين لا يميزون ولا يدركون أبعاد زينة المرأة، وإذا انتفت الزينة الظاهرية فقد يكون للزينة الباطنة تأثير على السمع أكبر مما تثيره الزينة الظاهرة على البصر، كلبس الخلخال الذي اشتهر بين أوساط النساء الجاهليات، فيأتي النهي صريحا عن سلوك مثل هذه الطريق الجاهلة، ومن كان يرتكب مثل هذه المنهيات فليتب إلى الله تعالى؛ لأن الامتثال لأوامر الله يؤدي إلى الفلاح.

دور الطلاق في الإصلاح وحل الخلافات الأسرية المستعصية:

عمل الإسلام على تماسك الأسرة تارة من خلال جعل رابطة الزواج لها قدسية ينبغي احترامها، وتارة من خلال سَنّ التشريعات التي تبين الحقوق الزوجية، وتارة من خلال إيجاد الحلول لمشكلات تطرأ في خضمّ الحياة الزوجية، وغير ذلك من العوامل التي تحافظ على الحياة الزوجية من التمزق والتشتت.

ولكن قد لا تفلح كل هذه العوامل في إبعاد شبح الانفصال بين الزوجين، وفي هذه المرحلة، لا يترك الإسلام سبل لم الشمل، فهو أولا يذكر الأزواج بأنهم إن كرهوا الزوجات فقد يجعل في الصبر عليهنّ خيرا كثيرا، وتتبدل الكراهة محبة، ثم إن استمرت الكراهة، وأصبح الاستمرار في حياة تملأها النزاعات والمشاحنات شبه مستحيل، بل إن البقاء في هذه الحياة الزوجية وما

يصاحبها من نزاعات سيكون ضرره وخيما على المجتمع، فينتقل هذا العنف إلى المجتمع، وفي مثل هذا الحال يطلب الشرع من الرجل - إن أراد الطلاق- أن يوقع الطلاق في طهر لم يجامع فيه، لعله يكون في نزوة غضب فيتفكر في الأمر، فإذا ما جاء الموعد الذي يباح فيه إيقاع الطلاق، يتراجع عن قراره إن حصل وطلق الزوج زوجته تطليقة، فهناك عِدّة تعتدُّها المرأة هي ثلاثة قروء، ويصحّ فيها مراجعة الزوج لزوجته لإعادتها إلى عصمته، وحرصا من الشرع القويم على لمّ الشمل بين الزوجين -حتى لو وصلت الأمور إلى هذا الحد- فإنه يطلب من الزوجين أن تعتد هذه الزوجة في بيت زوجها، فربما تثور الوشيجة التي كانت تجمع بين الزوجين، فيقوم الزوج بدوره في مراجعة زوجته.

وإن فكر الزوج مرة أخرى في تطليق زوجته التطليقة الثانية، فإنّ الإسلام لم يغلق باب الرجوع بين الزوجين، وللتأكيد على هذا الأمر جعل العدة أيضا ثلاثة قروء، لعل الزوج يراجع زوجته في هذه الحالة، ليلتئم الشمل وتعود حياتهما إلى طبيعتها.

خاتمة البحث:

الإصلاح الأُسَري في الإسلام له جذوره القوية، وقد أخذ هذا الموضوع حيزا لا بأس به من آيات كتاب الله تعالى، وقد عالجت هذه الآيات موضوع الإصلاح الأسري بشمولية، فأرشدت المقبلين على الزواج إلى سلوك الطريق الذي يصلح أسرهم، فوضعت لهم الأسس والقواعد التي تقيهم من الوقوع في أوحال الفساد.

والأسرة تكبر ويزداد حجمها، فتحتاج إلى إرشادات تحافظ على صلاح الأسرة، ولم تغفل الآيات الكريمة دور أفراد الأسرة – كل في موقعه- في المحافظة على صلاح الأسرة، أو انتشالها من حفرة الفساد، وعززت هذه الأدوار بالأمثلة العديدة.

وقد تَتشِبّ الأسرة على الصلاح، ثم تنخر فيها جراثيم الفساد، أو أن هذه الأسرة لم تقم أساسا على الصلاح، فلابد إذًا من العلاج في مثل هذه الحالات، ولا ينبغي ترك الأسرة ترزح في حمأة الفساد، فجاءت الآيات الكريمة لتوضح الأساليب التي يتم انتهاجها لمعالجة أحوال الفساد المختلفة، إضافة إلى الأدوار التي ينبغي لكل فرد من أفراد الأسرة انتهاجها كي يتحقق الصلاح في الأسرة. وقد يتوهم البعض بأن الطلاق شر وفساد يطرأ على الأسرة، لكن هذا الظن قد حاد عن جادة

الصواب، فقد يكون الطلاق – العقلاني- للأسرة التي تفاقمت فيها الخلافات، وأصبح الاستمرار في الحياة الزوجية ضررا مؤكدا ليس فقط على صعيد الزوجين، بل ضررا على كل أفراد الأسرة، وأثبت ذلك من خلال الآيات العديدة التي نظمت حالات الطلاق.

إنها عظمة كتاب الله وروعته في جلب السعادة لأتباعه، وإيجاد الحلول للمشكلات والعقبات التي تعترض طريقهم، وهذا مصداقا لقول الله تعالى {إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (٩:الإسراء).

توصيات الباحث:

١. تفعيل دور الإصلاح الأسري من خلال الإعلام، وإنشاء دائرة مستقلة للإصلاح الأسري.
٢. توعية الشباب والمقبلين على الزواج بحقوقهم وواجباتهم، وتعريفهم بسبل الإصلاح الأسري.
٣. تبصرة الأهل المحيطين بالأسرة بدورهم الحقيقي في الإصلاح بين الزوجين.
٤. تبّني الزوج سياسة إصلاحية تعتمد على كتاب الله تعالى، سواء في إصلاح أولاده أو زوجته وأهله.
٥. إبراز دور الزوجة في الإصلاح باعتبارها ركنا مهما في الإصلاح الأسري جنبا إلى جنب مع زوجها.
٦. الإصلاح الأسري منظومة واحدة ينبغي التعامل معها، فلا يتم اللجوء إلى الطلاق إلا بعد فشل المحطات التي قبلها في الإصلاح الأسري.
٧. تخصيص دراسة تشمل الأسر التي تحدث عنها القرآن الكريم.
٨. دراسة الإصلاح بكل جوانبه دراسة تفصيلية، تشمل كافة أنواع الإصلاح الموجودة في كتاب الله.

قائمة المراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. أبو زهرة، محمد (٢٠٠١) الأحوال الشخصية، القاهرة: دار الفكر العربي.
٣. أبو زيد، محمد (١٩٩٣) محاضرات في عقد الزواج، مطبعة دار الفكر العربي.
٤. الألباني، محمد ناصر الدين (١٩٧٧) جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة، غزة: مكتبة المنصورة.
٥. حمدان، محمد (٢٠٠٦) توافق الزواج وتعزيز وتصويب العلاقات الزوجية، دمشق: دار التربية الحديثة.
٦. الخالدي، إبراهيم (٢٠٠٩) الأسرة السعيدة والخلافات الزوجية، عمان: دار الإعلام للنشر والتوزيع.
٧. الصابوني، عبدالرحمن (١٩٨٣) نظام الأسرة وحل مشكلاتها في ضوء الإسلام. ط ٩، القاهرة مكتبة الصفوة.
٨. عقلة، محمد (١٩٩٠) نظام الأسرة في الإسلام. ط ١. عمان: مكتبة الرسالة.
٩. فائز، أحمد (١٩٩٠) دستور الأسرة في ظلال القرآن . ط ١ ، بيروت : مؤسسة الرسالة
١٠. القرضاوي، يوسف (١٩٩٣) فتاوى معاصرة. ط ١، المنصورة: مطبعة دار الوفاء.
١١. حقي، زينب محمد وأبو سكينة، نادية حسن (٢٠١٨) العلاقات الأسرية بين النظرية والتطبيق، ط٢، جدة: خوارزم.
١٢. الخالدي، إبراهيم (٢٠٠٩) الأسرة السعيدة والخلافات الزوجية، عمان: دار الإعلام للنشر والتوزيع.
١٣. علاء الدين، جهاد محمود (٢٠١٠) نظريات وفنيات الإرشاد الأسري. الأهلية للنشر والتوزيع: عمّان.
١٤. هديبل، يمنية مقبال (٢٠١١) الضغط النفسي وعلاقته بالتوافق الزواجي (دراسة ميدانية على عينة من أستاذات التعليم العالي) مجلة دراسات نفسية وتربوية – جامعة قاصدي مرباح: الجزائر.
١٥. كفافي، جابر عبدالحميد (١٩٩٩) معجم علم النفس والطب النفسي، بيروت: دار النهضة العربية.

مواقع الأنترنت:

١٦. وزارة العدل السعودية www.moj.gov.sa